المحاضرة الثالثة عشر

عنوان المحاضرة:

ضعف الكتلة الشيوعية وانهيارها The weakness and collapse of the communist bloc

اولاً: مقدمات الانهيار السوفيتي First: the precursors of the Soviet collapse

١- الأزمة الاقتصادية 1- The economic crisis

- التخلف التكنولوجي - Technology retardation

محتوى المحاضرة:

لقد جاء رد الفعل على عملية الغزو بعيداً عن كل الحسابات السوفيتية وعلى جميع الصعد:

اولاً- داخل أفغانستان فوجئ السوفييت بالمقاومة المسلحة العنيفة من قِبَل الشعب الأفغاني المدعومين من قوى خارجية لها أهدافها المتباينة التي اتفقت على إلحاق الهزيمة بالقوات السوفيتية، وقد أحرجت هذه المقاومة وبطريقة حرب العصابات الجيش السوفيتي لاسيما أن مناطق القتال هي مناطق جبلية وَعِرة فضلاً عن تفاني الشعب الأفغاني في القتال بشكل فاق التصور كونه ينطلق ليس فقط من منطلقات قومية أو قِبَلية وإنما ايضاً من العقيدة الإسلامية التي فرضت على المسلمين الأفغان الجهاد ضد المحتل. فقد توحدت فصائل المقاومة الأفغانية بعد أن كانت مشتتة وغير فعالة. إذ أعلن في ٢٧/ ١/ ١٩٨٠ في الباكستان تشكيل تحالف إسلامي لِسِتَة حركات ثورية أفغانية بزعامة برهان الدين رباني بهدف تحرير البلاد. وقد تمكن الثوار من تحقيق عدة انتصارات ففي جلال اباد انضمت فيها القوات الأفغانية إلى الثوار. وفي شباط استولى الثوار على عدة مناطق في شمال العاصمة كابل، كما أُعلِنَ ٢٠ شباط إضراب عام في العاصمة الأمر الذي دعا السلطة المحلية إلى إعلان الأحكام العرفية وفرض حظر التجول.

ثانياً- أما رد الفعل العالمي فقد كان هو الآخر خارج الحسابات السوفيتية:

أ- فقد تصاعدت الإدانة للغزو السوفيتي في الأمم المتحدة وفي مُنَظَمة المؤتمر الإسلامي وكذلك في مؤتمر عدم الانحياز الذي كان السوفيت يعدّونَه ضمن مؤيديه لما كان للدول المؤسسة لهذه الحركة من ارتباط وثيق بالاتحاد السوفيتي الذي عُدَّ في مرحلة ما داعمة للحركات الوطنية والثورية في العالم الثالث.

ب- أما الغرب فإنه لم يكتفِ بالإدانة وإنما بدأ باتخاذ خطوات عملية لمعاقبة الاتحاد السوفيتي ومحاصرته ومنعه من إنجاح عملية الغزو، إذ جمدت الاتصالات بين دول أوربا الغربية وبين الاتحاد السوفيتي مما أدى إلى تعميق الضرر على الاقتصاد السوفيتي، كما أن الولايات المتحدة الأمريكية قد أوقَفَت التعاملات التجارية مع موسكو لا سيما إيقاف تصدير الحنطة الأمريكية إلى الاتحاد السوفيتي، وأعلن الرئيس كارتر في ١٣/ ١/ ١٩٨٠ تقديم مساعدات عاجلة إلى باكستان بقيمة (٤٠٠) مليون دينار لمواجهة الخطر السوفيتي، وفي ١٤/ ١ شَرَعت القوات الأمريكية بالتحرك باتجاه الخليج العربي بحجة منع التوسع السوفيتي. فضلاً عن ذلك قررت الولايات المتحدة الانسحاب من الألعاب الأولمبية المُقَرَر إقامتها في موسكو عام ١٩٨٤. كما تصاعدت الدعاية المضادة للاتحاد السوفيتي ولأيديولوجيته الشيوعية في أوربا والولايات المتحدة مما أعاد للذاكرة أجواء الحرب الباردة في خمسينيات القرن العشرين.

كما بدأت الولايات المتحدة وحلفاؤها في نشر ٦٠٠ صاروخ نووي بعيد المدى في أوربا الغربية، وبدأت الدعوات الأمريكية لزيادة الإنفاق العسكري لسد الفجوة التسليحية مع الاتحاد السوفيتي مما مَثَّل انتكاسة حقيقية لمساعي الانفراج في العلاقات الدولية والحد من التسلح.

وطبقاً لذلك فقد اعتبر الرئيس الأمريكي جيمى كارتر الغزو بأنه اكبر خطر يهدد السلام الدولي منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية (متناسياً غزوه لفيتنام). وانطلاقاً من هذه الرؤيا الأمريكية فقد دعا الرئيس الأمريكي إلى مجموعة من الخطوات أُطلق عليها (مبدأ كارتر) وذلك عام ١٩٨٠ وتقضي بزيادة ميزانية الدفاع الأمريكية وتطوير قوة التدخل السريع لتكون جاهزة في التصدي لأي محاولة تهديد المصالح الأمريكية لاسيما في منطقة المحيط الهندي والخليج العربي، كما دعا المبدأ إلى التوسع في بناء القواعد العسكرية في منطقة المحيط الهندي وفي الشرق الأوسط من خلال تدعيم العلاقات الأمريكية مع دول هذه المناطق.

ج- اندفاع عدد من الدول وتحت مشاعر التخوف من الخطوة السوفيتية نحو إقامة علاقات أكثر تطوراً مع الولايات المتحدة فقد وافقت كل من عمان وكينيا والصومال في ١٢/ ١/ ١٩٨٠ بالسماح للقوات البحرية والجوية والأمريكية للحصول على تسهيلات عسكرية بهدف ردع السوفيت، كما ازدادت العلاقات الأمريكية تطوراً مع مصر والسعودية (التي تجاوزت رد فعلها حول اتفاقية كامب ديفد ١٩٧٧) وكذلك الباكستان والصين ودول أخرى. وشهد هذا التطور أبعاداً واسعة كإقامة القواعد العسكرية والتنسيق السياسي والاقتصادي.

ثالثاً- تصاعد تأثير السلفية الإسلامية في الدول العربية والإسلامية وتراجع القوى الشيوعية والإشتراكية وذلك بدعم مباشر من الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها، فقد أشاعت الولايات المتحدة بعد الثورة الإسلامية في إيران عام ١٩٧٩ ومن خلال وسائل إعلامها بأن الخطر القادم هو الخطر الإسلامي وموضوع الجهاد، وأصبحت هذه المواضيع تَعِج بها الصحف والكتب الغربية. إلا أن هذا الإعلام الغربي دار حول نفسه دورة كاملة بعد أن أصبح الجهاد في الإسلام يخدم المخطط الأمريكي في أفغانستان وتحوَّل التركيز على دعم القوة الإسلامية لمواجهة الخطر السوفيتي الأمر الذي سيكون له تأثير سلبي معاكس في المرحلة القادمة لأن التحدي الجديد بعد انهيار الشيوعية سيكون السلفية المتشددة.

رابعاً- عدم قدرة الاتحاد السوفيتي توظيف علاقاته وتحالفاته في العالم لصالح استراتيجية مقاومة ردود الأفعال العالمية المتنوعة حول غزوه لأفغانستان فقد أدان العراق عملية الغزو ووقف ضدها كما إنه دخل في حرب مع إيران أبعدته عن لعب دور إقليمي أو عالمي، أما ليبيا واليمن الجنوبي وسوريا فإن أهمية مواقفهم لم تكن ذات تأثير واضح. أما أوربا الشرقية فكان حلفاء الاتحاد السوفيتي أضعف من أن يكون لهم دور مؤثر لأسباب داخلية أو نتيجة أزماتها الاقتصادية.

كان من بين أهم نتائج الغزو السوفيتي لأفغانستان كشف الغطاء عن الواقع المتردي الذي يعيشه الاتحاد السوفيتي على الصعيدين الداخلي والخارجي الأمر الذي جعل الغزو ونتائجه العسكرية والسياسية والاقتصادية أول مسمار في نعش الاتحاد السوفيتي الذي ستبدأ خطوات تفكيكه مع مجيء غورباتشوف إلى السلطة عام ١٩٨٥ تحت شعار البروستريكا أو (إعادة البناء).

ضعف الكتلة الشيوعية وانهيارها

اولاً: مقدمات الانهيار السوفيتي

عندما جاء لينين إلى السلطة بعد ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ كان يعد بقيام دولة العدالة والرفاهية التي تقوم على الاتحاد الطوعي بين عدد من الشعوب كان القياصرة قد أخضعوها بالقوة إلا أن تاريخ الاتحاد السوفيتي لم يشهد تحقيق هذه الأهداف، بل إنها شهدت في العهد الستاليني أقسى أنواع السلطات المركزية، إذ تم إخضاع عدد من الدول تحت الهيمنة السوفيتية وبالقوة، وإجبارها على انتهاج الخط الماركسي الذي يُحَرِم على الشعوب السوفيتية أي مشاعر قومية أو دينية. في تلك الفترة بدأت بذور الضعف السوفيتي والتي بدأت بوادره بالظهور خلال عقد الثمانينات من القرن الماضي نتيجة لجملة من المتغيرات الدولية أو الداخلية أفضَت إلى حالة من الغليان الشعبي انتهت إلى ضعف الدولة وتفككها.

لقد جاء انحسار السيطرة الاستعمارية بنوعيها السياسي والعسكرية وظهور حكومات محلية وطنية مستقلة مما أضعف الطروحات الأممية التي تبناها الاتحاد السوفيتي، فضلاً عن ذلك فأن الموازنة في البناء الاقتصادي والاجتماعي وبناء الدول على الأسس الاشتراكية وفي نفس الوقت وفق الواقع المعاصر أصبح أمراً صعباً الأمر الذي أدى إلى ظهور حالة من التناقض بين المبدئية الماركسية وبين الطابع البرغماتي الذي بدأ الاتحاد السوفيتي بانتهاجه تماشياً مع متطلبات الواقع الأقتصادي والاجتماعي المعاصر. زاد في عمق الأزمة الاستغلال الإعلامي والسياسي والاقتصادي من قبل دول الغرب والذي ركز على إبراز معالم الفشل في تطبيق النظرية الاشتراكية.

كانت وفاة الزعيم السوفيتي الأبرز ليونيد برجينيف في ١٠/ ١١/ ١٩٨٢، وهو من الزعماء الأكثر تشدداً في تطبيق المبادئ الماركسية - اللينينية (والذي وصل إلى قيادة الاتحاد السوفيتي بعد الإطاحة بخروشوف عام ١٩٦٤) بداية لكشف الغطاء عن أوضاع مأساوية يعيشها الاتحاد السوفيتي وعلى جميع المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فخلال سبعينات القرن الماضي أشاع السوفيت تفوقهم العسكري على الولايات المتحدة، وأنهم يحققون انتصارات كبيرة في المواجهة مع الغرب (الرأسمالي والإمبريالي) لاسيما في مجال سباق التسلح وفي التغلغل إلى عدد من المناطق الاستراتيجية في العالم كأفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، وسط تراجع أمريكي في دورها العالمي محكومة بعقدة فيتنام فضلاً عن ظروف سياسية داخلية.

لقد رَوَّج السوفيت في فترة السبعينات إلى أن المعسكر الاشتراكي يتوسع جغرافياً وإيديولوجياً في الوقت الذي يتراجع فيه النظام الرأسمالي الذي صَوَّر على انه تتقاذفه الأزمات الاقتصادية كالتضخم والبطالة وغيرها كما كان يصوّرها الإعلام السوفيتي. إلا أن هذا التفوق العسكري لم يكن في حقيقته مؤشر قوة وإنما كان أحد أهم أسباب استنزاف القدرات الاقتصادية السوفيتية والتي هي أصلاً تعاني من فجوات أخذت بالاتساع شيئاً فشيئاً.

ويشير الباحثون إلى أن الفكر الاشتراكي وسياسة الدول التي تبنته بعد هذه المرحلة عَبَّر عن تجمده عند حدود معينة وفشل في اللحاق بتطورات العصر التكنولوجية أو حتى التخطيطية في بناء سياسات عسكرية واقتصادية وحتى إعلامية مناسبة الأمر الذي أدى إلى تخلفه في مرحلة الثمانينات وفشله في إيجاد التفسيرات اللازمة وفق المنطق الماركسي لكيفية مواكبة التطورات المعاصرة الأمر الذي جعل الفكر الماركسي مجرد شعارات خاوية من المصداقية.

وصل إلى السلطة بعد وفاة برجينيف إثنان من القادة الشيوعيين الكبيري السن، ولم يستمروا في الحكم إلا فترة قصيرة إذ لم يستمر اندروبوف في السلطة إلا للفترة من ١٢/ ١١/ ١٩٨٢ حتى ٩/ ٢/ ١٩٨٤ وهو تاريخ وفاته. ثم تم تنصيب جيرننكو الذي توفي هو الآخر في ١٠/ ٣/ ١٩٨٥ ليتم اختيار ميخائيل غورباتشوف أميناً عامَّاً للحزب الشيوعي السوفيتي، ولتبدأ مرحلة جديده أدَّت في نهايتها إلى تفكك الاتحاد السوفيتي واختفائه من خارطة العلاقات الدولية.